الأستاذة نرجس عمران (الجمهورية العربية السورية)

قصة صغيرة

حقاً أمرها غريب

كنت أتساءل في كل مرة ونحن نتسابق من منا ستصل يده إلى صحن البيض أولا ؟ ومن منا سيجمع لقمة أكبر من الأخرين ؟ ..

سؤالا واحدا .. لكن انشغالي بالبيض ورائحته وطعمه الشهي والسباق المعلن حينها كان ينسيني إياه

إلى أن وقع ذلك الحادث الصغير الكبير حينها فقط تذكرت سؤالي وعرفت جوابه أيضا بل وعرفت أكثر مما كنت أتوقع أن أعرفه .

أجل لقد كانت أمي تحمل على رأسها جرة ماء كبيرة من النبع إلى الأرض حيث قام أبي وأخوتي بغرس شتلات البندورة بينما أنا وأمي وباقي إخوتي تولينا مهمة نقل الماء من النبعة الواقعة أسفل الوادي تقريبا إلى أرض البندورة في أعلى الجبل تقريبا

تزحلقت أمي من تعبها وسقطت أرضا ولم تقو على السير بعدها ، أسفت جدا على وضعها الحرج هذا إنها المرة الأولى التي أرى فيها أمي مريضة جالسة لاتتحرك والمؤلم أكثر أنها كانت تتألم دون أن تعبر ،تتألم وتتوجع لكنها لا تشتكي لاتصرخ كما أفعل أنا

وبين الفينة والفينة تزحف بصعوبة لتصل إلى أي مكان في البيت تنجز عملا ليراها أبي فتعلو أصواته

طالبا منها العودة إلى فراشها وطالبا منا نحن عمل كل شيء وأي شيء

أمي حقيقة هي نقطة ضعفي وقوتي معا

إنسانة راضية مبتسمة دوما تعمل كل النهار في البيت وللبيت ولي ولإخوتي ولا تكل ولا تمل أنا لا أتذكر يوما أن صوتها ارتفع ولا أتذكر يوما أنها استاءت أو اعترضت أو انتفضت أو اشتكت من نقص أو ضيق أو طالبت بأي شي كباقي النساء

ولا حتى وبخت بصوت عال أو بكف أو صرخت على أحد أبدا هذا لم يحدث

أرسل أبي أخي الأكبر كي يحضر طبيب المنطقة آنذاك لم يكون يوجد غيره في كل تلك المنطقة أصلا ولا أعلم ماهو اختصاصه لأنه يعالج كل الحالات حتى الولادة وبكل قرى المنطقة .

دخل الطبيب إلى الغرفة حيث تمددت أمي لاتقو على الحراك ودخلنا خلفه صامتين مستغربين شكله والسماعة لنرى ماذا سيفعل ؟ نراقب حركاته بأدق التفاصيل

؟ ربما دخلنا قبله فالأطفال فضوليون عادة

وأجرى فحوصاته وطلب التحاليل اللازمة

ثم قال الطبيب لأبي شيئا لم أفهمه جيدا

فقلت لأبي مسغربة : شو شاشة بسام ؟

ابتسم أبي وقال لاشيء

أعدت سؤالي وأنا أشد سروال أبتي

شاشة بسام ...أين هي ؟

نحن لدينا تلفزيون أبيض وأسود فقط شاشته لنا وليست لبسام

ضحك أخي الأكبر مني وكان واقفا بقربي وقال واثقا رافعا رأسه يا غبي يقول الشاشة

يقصد الشاشة التي تصفي أمي فيها اللبن

ربما يريد أن يلف كسر أمي بها

فسألته وهل أمي زجاج مكسورة ؟

فقال أكيد مكسورا : ألا تراها لاتستطيع الحراك ؟

فقلت له :أتقصد أن أمي من زجاج ؟ !

أجابني أخي : إذا لماذا كسرت ؟ نظرنا إلى أمي التي لم تستطيع منع نفسها من الضحك وهي تنظر إلينا وقالت لا لست مكسورة يا صغيري

قال أبي بصوت حاد وقد علت أصواتنا وحديثا الذي جعل كلام الطبيب غير واضح .

اسكتا واخرجا هيا

فسكتنا ولم نخرج في الحقيقة ابتعدنا قليلا لأننا لانجرؤ في مواقف الحزم وخصوصا عندما يعقد أبي حاجبيه أن نخالف الأوامر

سمعت الطبيب يسأل أمي

ألا تشربين الحليب ؟ ألا تأكلين البيض ؟

عندها فقط تذكرت السؤال الذي

كنت أود أن أساله لأمي منذ فترة طويلة .وعلى كل فطور حافل بالبيض كان يجمعنا وهو

لماذا لاتحبين البيض يا أمي ؟

فأنا كنت أعرف أنها لا تأكله وكنت ألاحظ أن يدها الوحيدة الغائبة عن أيادينا المتدافعة باتجاه صحن البيض ..

وأستغرب كيف لها أن تقاوم رائحته ؟

كيف لها ألا تتذوقه ؟ هل هو حقا ليس لذيذا ؟

وأنا هو النهم وأمري الغريب !ولكن عندما كنت أرى إخوتي مثلي

أتاكد أن أمي هي الغريبة والبيض حقا لذيذ ..

ثم اقتربت دون شعور مني كي اسمع الجواب الذي كنت أود معرفته ولكن البيض شغلني

فأنساني إياه

خصوصا أن صوت أمي كان ضعيفا ولكنها تجواب مرغمة

قالت له أمي :

أحب البيض نعم ..لكن أحب أولادي أكثر

فتابع الطبيب كلامها قائلا : وأولادي يحبون البيض والببض قليل .فهمتك فهمتك

لكن مهما كان الظرف والحال فأنت يجب أن تتغذي وخصوصا بالكلس في هذا العمر من أجل أولادك

طالما أنت تفكرين فقط بهم

فهزت أمي رأسها قائلة :سأفعل إنشاء الله ...

لقد عرفت حينها أن أمي تحب البيض

ولكني تأكدت أكثر بأن أمرها هي ، هو الغريب

لكن ليس لأنها لا تحب البيض الشهي كما كنت أعتقد وإنما لمقدرتها على الامتناع عن ما تحبه

وخطر لي أيضا حينها أنها ربما تحب اللحم رغم أن اللحم كان يطهى في المناسبات النادرة و الأعياد فقط وهي لاتأكله أيضا

وكنت أتساءل عندماأرها في المطبخ وأنا أبلع ريقي وهي تتنقل بين الطناجر الحافلة بأكلات العيد التي لاتخرج منها الرائحة الشهية فحسب بل تفوح أيضا بخار الماء لدرجة أنه كان يحدث ضبابا في الجو يتكاثف على السقف ويقطر عليها مجددا

كيف لها أن تقاوم هذه الرائحة الشهية وهي تعد الطعام ؟ وبينما نتسابق نحن بفارغ الصبر إلى المائدة قبل وضعها و من ثم إلى الأطباق وتمضي هي الوقت ذاهبة عائدة من وإلى المطبخ

ربما كانت تجلس إلى المائدة حين نفرغ نحن منه ونهرع إلى اللعب نظرت إلى أمي قائلا حينها :

حقا أمرك غريب ؟ !

لديك من الحنان يا أمي ما يجعلك تجوعين كي نأكل نحن

هذه هي الأم وهذه بعض الأمومة